حقيقة التصوف

ما هو احسان او التصوف؟ الشوق الشديد للنفس البشرية لتلبية رغبتها الحقيقية؟ ما هو التصوف؟ روح الأخلاق وكمال الإيمان ، الشريعة الإسلامية أساسها ، والقرآن والحديث مصدرها ، كما قال سيد الطائفة الشيخ جنيد البغدادي بكلمات واضحة:

وهذا هو السبيل لتذكر أن الكتاب يجب أن يكون باليد اليمنى ، وأن تكون سنة المصطفى (عليه السلام) في هدوء ونور هذا النهر.

والوحيد الذي يجد هذا الطريق هو الذي يحمل كتاب الله بيده اليمنى وسنة الرسول بيده اليسرى.

يقول حضرة سهل بن عبد الله تستري ، الذي كان له مكانة مميزة بين رواد الصوفية: إن الأصول السبعة للالتزام بكتاب الله وأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم أولياء. الشرع والظالم ، التمسك الكامل بكتاب الله ، واتباع السنة النبوية ، وعدم السماح لأحد بإيذاء نفسه ، وجنود الذنوب ، والتوبة والاستغفار ، ودفع المستحقات.

سلطان الهند الشيخ معين الدين أجمري♦ هذا البيان مسجل في تاريخ أجمر.

"أيها الناس من ترك منكم سنة النبي صلى الله عليه وسلم يحرم من شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم".

حضرة مير سيد أشرف سمناني♦ تقول السلحفاة المدفونة في حي فايز آباد:

ومن الشروط أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مطيعاً قولاً وفعلاً وإيماناً.

من شروط الولي أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وفعله ومعتقداته.

التصوف في الواقع هو المرشد الذي يبقي الطالب على اطلاع دائم في كل الأوقات حتى لا يختفي البصر عن الأنظار ، سواء أكان طاهرًا أم لا ، فعليك في نفس الوقت معرفة ما إذا كان خيالك نقيًا أم لا ، سواء كان القلب هو نحو رب الكون أم لا ، حتى أن الصوفية تحذر الطالب في كل خطوة من أن القصد من القلب لا يتفوق عليه ، بمجرد أن سأله أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل إذا كان إنسانًا.♦لماذا يذهبون إليه وهم ليسوا علماء ورواة؟ قال: إني أعلم كتاب الله والبشر يعرفون الله. قال الراحل عارف هندي أكبرالابادي كلامًا جيدًا.

في ضوء القرآن هذه هي الشريعة

إن شاء الله هذا هو الطريق

- حقيقة أن الفقيه يأمر أيها العبد بأخذ اسم الله ، كما يقول الصوفي أنه ينبغي أن يأخذ اسم الله ، ولكن حتى ينزل إلى قلبك ، أي ، يقول الصوفي. أن لا يكفي أن تأخذ اسم الله باللسان فقط ، بل يجب أن يكون قلبك ذكرًا باللسان أيضًا ، وعبارة (تارة فنا يارق) تفسير نبوي بليغ لحراسة هذا القلب. والغرض من

الذكر والتأمل والحساب والتأمل ومـا إلى ذلـك هـو أن ينفصـل القلب عن مقتنيـات المراقبة والحضور النفيسة.

كتب الصـوفية الموثوقـة مثـل قـط القلـوب للشـيخ أبـو طـالب مكي ، وطبقـات الصـوفية للشـيخ عبـد الـرحمن السـلمي ، وحليـات الأوليـاء لأبي نعيم الأصفهاني التنوير للشيخ السهروردي ، وأرشـيف فـؤاد الفـواد الشـيخ نظـام الـدين أولياء. وخير المجالس المحفوظات الشيخ نصير الدين شيراج دهلوي الخ. أن تعاليم القرآن والحديث هي أساس كفاح ورياضيات وتأمل الصوفيين العظام ، وأن حيـاتهم الطاهرة كانت الصور الحية للإسلام.

في التعاليم الإسلامية ، أعطيت المحبة الإلهية والأخلاق وخدمـة النـاس المكانة الأساسية ، كمـا أن تعـاليم الصـوفية تقـوم على الأركـان الثلاثـة. وبنـاءً على الأدلـة التاريخيـة ، يمكن القـول دون خـوف أن الصـوفيين أنفسـهم قـد حافـظ على النظام الأخلاقي والروحي للإسلام على قيد الحياة في جميـع العصـور ، ولم يقم أي فريق بواجب الوعـظ وبنـاء الشخصـية أكـثر من الصـوفيين ، كمـا قـام بـأهم خدمـة للتدريب والإصلاح ولا يحتـاج إلى أي تفسـير بـأن فـالواقع في الإسـلام هـو القلب لا العقل ، فإذا فسد القلب ففسد العقل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إلا الذين في الجسد إذا يوجد سلام في الجسد سلام ، وإذا كان هناك فساد في الجسد فساد إلا القلب نفسه ". هناك عضو في جسـم الإنسـان ، إذا صـار بـاراً ، فيصـلح الجسـد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، فاعلم أنه القلب.

وقد أوضـح العلمـاء حقيقـة الإسـلام بـالحجج العلميـة والنظريـة ، بينمـا كشف الصوفيون حقيقة الإسلام من خلال أعمـالهم وأخلاقهم وأخلاقهم وسـلوكهم ، فلا فرق بين الصوفية وطريقة الشريعة ، بل الصـوفية حقًـا عبـير الإسـلام وروحـه ، ولكن مهما كانت الحركـة البشـرية جيـدة ، فعنـدما يصـبح التطـرف لعبـة فعـل ورد فعل ، لا يبقى شكله دون تحريف ، كما قال علماء الدين. الإسلام من تأثير الفلسفة اليونانية ، ولكن فيما بعد ، عندما استخدم اللاهـوت كوسـيلة لإثـارة الشـكوك ، كـان هذا اللاهوت هو الذي تسبب في الارتباك العقلي بين المسلمين. وفي حالة الصوفية أيضًا ، فإن رؤية الشعبية العالمية للتصوف وظهوره أتى السادة الجهلاء أو المقلدون المتنكرين بالصوفية إلى هذه المجموعة في صوفيا صافية ونشـروا نظريـة الاختلاف في الشريعة والطريقة لغرضهم الخاص.لقد جعل الاسـتبداد وعبـادة القبـور والغنـاء والترنيمة جزءًا لا يتجزأ من التقدم الروحي وحوّل تجنب العلمانيـة إلى رهبنـة ، لكن يجب ألا ننسى حقيقة أن علماء الصوفية تحدثوا دائمًا ضد هذه الأخطـاء ، وقـد كـان دائمًا حاول إزالة هذه العناصر الفاسدة من الصوفية.

على أساس هذا التصوف الكاذب وغير الإسلامي ، يجب إنكار الصـوفية صراحة ويجب وصفها بأنهـا أفيـون للبشـرية ، ويجب اتهـام أن الصـوفية تعلم تجنب حقائق الحياة وأنه إذا تم صنعها فسوف أن يكـون ظلمًـا واضـطهادًا كـاملاً للتصـوف الإسلامي.

لسوء الحظ ، فإن قسمًا من المسـلمين أنفسـهم ، معتـادًا على النظـر إلى العلوم الإسـلامية من خلال مـؤلفين شـرقيين ومسـيحيين ومن خلال عدسـاتهم المسـتعارة ، بـدلاً من دراسـة التـأثيرات الإسـلامية والإسـلامية مباشـرة ، يقـدمون اعتراضات لا أساس لها على التصوف الإسلامي. ومن العدل أن يكـون هـدف العـار

التصوف الإسلامي الإسلامي ورذائـل التصـوف غـير الإسـلامي ، فقـد سـفك الـدماء وحرم الملايين من عباد الله من نعمة التصوف. ديبل هو المستكي .

$ $ $

يقول أبو الحسن البوشنجي الذي عاش في حقبة زمنية جاءت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثمائة سنة:

التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم

وقال الإمام الهجويري الصوفي الذي جاء بعد ذلك بقرن من الزمان في شرحه لكلام أبي الحسن: "يعني أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف، وكان المعنى موجودا في كل منهم. والآن يوجد الاسم، ولا يوجد المعنى".

إن التصوف هو بحق أحد الموضوعات المثيرة للجدل في الخطاب الإسلامي. ومجرد ذكر الكلمة يثير عند البعض ردود فعل مشمئزة، لكنها تعني للبعض الآخر جوهر التعاليم الإسلامية. وإذا استخدمنا مصطلح "فوبيا الصوفية" في إشارة إلى موقف العديدين من التصوف، فلن يكون هذا من قبيل المبالغة والمغالاة. ويأتي هذا الجدل نتاج أربعة عوامل هي: تبني رؤية مجزئة عن الإسلام؛ وظهور نوع من التصوف الفلسفي الرمزي؛ وإساءة استخدام التعاليم الصوفية الحقة من جانب الأتباع؛ وظهور خطاب إسلامي تصنيفي غير متسامح يثير الشقاق والانقسام.

ولا بد أن يكون تناولنا لمسألة التصوف تناولاً متزنًا في السياق الصحيح. وهناك ثلاثة مبادئ منهجية ينبغي أن تكون دليلا لنا في معالجة التصوف (أو أي موضوع خلافي في هذا الصدد):

1. الجوهر والمضمون أهم من الكلمات والاصطلاحات

لا شك أن اللغة والاصطلاحات هي أمور مهمة لكنها في النهاية تنقل المعاني والرسائل. وهناك قاعدة أصولية في المنهجبة الفكرية الإسلامية تقول لا مشاحة في الاصطلاح- وهي قاعدة معروفة في الفكر الإسلامي.

فالمدار على الجوهر والمضمون. لذا إذا كنا نريد بلفظ التصوف الإشارة إلى المظاهر المعاصرة الشائعة للمعتقدات المنحرفة والخرافات والبدع والفهم السلبي والفلكلوري للدين، فإن هذا لا شك يتنافى مع التعاليم الإسلامية وهو أمر لا بد من رفضه. لكن إذا كنا نريد بالتصوف تلك الضوابط والممارسات الأخلاقية والروحية التي تستند إلى القرآن والسنة وتهدف إلى تحقيق "صدق التوجه إلى الله" (كما يقول أحمد زروق) والسمو بالروح الإنسانية وتطهيرها من كل الأدران الحسية والروحية وتحليتها بالفضائل، فهذا هو جوهر الدين الإسلامي.

2. تقييم موضوعي

لا شك أن كثيرًا من التصوف اليوم أو ما يظنه الناس تصوفًا لا يخلو من جهل وخرافة واستغلال للدين ومغالاة في الشعائر والطقوس واستهلاك روحي. ولكن هذا لا يعفينا من المسؤولية الدينية في تقديم تقييم موضوعي منصف للتصوف، ولا يخوّل لنا غير ذلك. وأي تحليل يتسم بالإنصاف والموضوعية لا بد أن يشير إلى أن التصوف مظهر إسلامي حقيقي متجذر في تاريخنا. ويقف التاريخ شاهدًا على الدور المحوري الذي مارسه التصوف في نشر الدين الإسلامي في ربوع العالم. إذ يرجع الفضل للتجار الصوفيين في نشر الإسلام في العديد من أنحاء العالم وهي أماكن تعج الآن بأعداد هائلة من المسلمين. لكن هناك العديد من الاتهامات التي توجه للصوفية والمتصوفة ومنها السلبية والخضوع للظالمين والمستبدين. على أن التاريخ يشهد على جهود الصوفية في الجهاد لحماية حرية الناس، ومن ذلك الحركة السنوسية في ليبيا، وحركة المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر أو جهود صوفية النقشبندي ضد الاعتداء الروسي أو جهود علماء الصوفية في آتشه في قيادة المقاومة الإسلامية ضد الاحتلال الهولندي.

ورغم ذلك فقد أدى انحسار مد الصوفية الحقّة إلى ظهور نوع من الفهم والتطبيق للإسلام يجرده من أي قوام روحي أو أساس أخلاقي ويفصله عن الالتزام الظاهري والشكلي. وأصبحت الصوفية في نظر الكثيرين بدعة وشرك، وكذلك أصبح المتصوفة منحرفين ومبتدعين بل ومشركين.

ودائمًا ما يستدل منتقدو التصوف بما ورد عن ابن تيمية الحنبلي وغيره في ذمّ الصوفية. ومع ذلك، فإن قراءة واعية في مؤلفات ابن تيمية تثبت

أنه تبنى موقفًا متزنًا وموضوعيًا في تقييمه. إذ يقول في رسالة له بعنوان (التحفة العراقية في الأعمال القلبية):

"... وما لما في ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفـة وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار الطوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة".

3. روح النقد الذاتي

كل المساعي البشرية - فردية كانت أو جماعية - عرضة للوقوع في الخطأ، وليست الصوفية استثناءً في هذا الأمر. وتعدّ روح النقد الذاتي جزءًا لا يتجزأ من الموروث الصوفي. يقول الواسطي: "كان للقوم إشارات، ثم صارت حركات، ثم لم يبق إلا حسرات". وقد أفرد السراج الطوسي في كتابه (اللمع) جزءًا لانحراف الصوفية وغلوهم. وهذا الاتجاه نحو النقد الذاتي استمر في أعمال شيوخ الصوفية الكبار من أمثال السُلّمي (المتوفى سنة 413) والقشيري (المتوفى سنة 465) والهجويري (المتوفى سنة 465) والغزالي (505) وآخرين. ولتفادي اللغة الملغزة والغامضة التي عُرفت بها الصوفية، أُلفت العديد من الكتب والرسائل لتمهد الطريق أمام تصوف واضح لا غموض فيه "وتقرّبه للأفهام وتجلي أمام الناس مفهوم التقوى والسمو بالنفس وتزكيتها خاصة لهؤلاء الذين لم يكن لديهم لأي سبب من الأسباب أي اتصال رسمي بالصوفية في أي شكل مؤسسي". (انظر: ترجمة البروفيسور شيرمان جاكسون لكتاب تاج العروس لابن عطاء الله السكندري).

إذًا ما هو التصوف؟ التصوف في الحقيقة هو مرادف لما عبّر عنه القرآن بلفظ "تزكية النفس" وعبّر عنه النبي العدنان بلفظ "الإحسان". والإحسان كما أوضح النبي المصطفى الكريم أن "تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (البخاري).

والتصوف في حقيقته هو المظهر الأخلاقي والروحي للإسلام. وهو الطريق الموصل إلى التقوى وتزكية النفس والسمو الأخلاقي والتحلي بالفضائل الروحية والأخلاقية. ويركز "التصوف التطبيقي" على تطهير

الإنسان من خصال الشر للنفس الدنيا الموجودة بداخل كل منّا، ومن هذه الخصال: الجهل والكبر والحقد والحسد والغضب والكره، إلى جانب التحلي بالفضائل مثل المعرفة والتواضع والرضا والصبر والحب.

والقرآن والسنة النبوية يمثلان الأساس للتصوف التطبيقي. {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} (سورة آل عمران:79) هكذا يأمرنا القرآن. ويقول تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} (سورة الشمس:9). وقال تعالى: {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة الشعراء:87-89). وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تدل على أهمية القلب: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (البخاري). والموت في السنة النبوية لا يُقصد به الموت الإكلينيكي وإنما يشير إلى حالة روحية لمن يغفلون عن ذكر الله، روى البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت".

إن التصوف هو التحلي بمحاسن الفضائل والأخلاق. وقد أورد الإمام القشيري في رسالته عدة تعريفات للتصوف تربطه مباشرة بحسن الخلق. سئل أبو محمد الجريري عن التصوف، فقال: الدخول في كل خُلُق سني والخروج من كل خُلُق دنيّ. ويقول الجنيد (المتوفى سنة 910) التصوف خُلق، من زاد عليك بالخلق، فقد زاد عليك في التصوف.

وإذا كانت الشريعة هي بمثابة الجسد للإسلام فإن التصوف هو الروح.إن الحديث عن التصوف لا بد أن يشهد تغيرًا جذريًا ليس في المادة والمضمون لكن في اللغة أيضًا، وهي لغة حقيقية مناسبة متجذرة في تراثنا الفكري والأخلاقي. وعلى الرغم من ضرورة توخي الحذر عند توظيف كلمة "التصوف" واستخدامها، إلا أنه لا غنى لنا عن إعادة صياغة هذا المصطلح وإعادة هذا النهج إلى الوجود. ولا شك أن إحياء التراث الصوفي ووضعه في سياقه الصحيح لا بد أن يكون في قلب المساعي الرامية إلى نشر الإسلام في ربوع عالمنا المعاصر. فإن التصوف لغير المتصوفة بات ضرورة من ضرورات هذا العصر.